

لمحة تاريخية عن حياة المرحوم الشيخ بن يخلف بوطالب (1883-1957)

جلول الجيلالي *

ولد المرحوم الشاعر بن يخلف بوطالب سنة 1883م بترية جده سيدي بن يخلف الراشدي ، التي تبعد ببعض الأميال عن مدينة معسكر. نشأ الشيخ بن يخلف وسط عائلته وأمام والده الذي كان يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ، وهكذا وفي جبل الراقوبة الشامخ ، والمطل على بساط سهل غريس ، وفي أرض الراشدية الخضراء ، واستنشاق الهواء وأمام أضرحة الأجداد والأولياء، عاش المرحوم مع هذا الجو حافل بالأحداث والبطولات التاريخية منها والعلمية ، كل هذه الأمور ساعدت الشاعر على فتح ذاكرته ، و بما أنه كان والده يحفظ القرآن ، فمن المفهوم أن المرحوم ورث ذلك مع الزيادة في التبحر في الفقه و مبادئ التوحيد ، وتثبت بعض الأقاويل أنه كان محصلا على ثقافة عصره التي تشمل غالبا حفظ القرآن الكريم ودراسة العبادات كالفقه و التوحيد و الأحاديث المتداولة ، و كان يزور مدينة معسكر المرة بعد الأخرى حيث كان يحاول أن يجد تسلية لهمومه بين لفييف من أصدقاءه الأوفياء.

* مكلف بالأرشيف، معسكر - الجزائر

و في سنة 1899 انتقل المرحوم هو و عائلته إلى مدينة معسكر و استقر بحي سيدي الموفق مجاورا فيه العلماء و أصحاب الطرق و شعراء الشعر الملحون، و يعتبر حي سيدي موفق أحد الأحياء الشعبية العريقة و في هذه المدة تابع المرحوم معاشرة الأصدقاء إلى أن اتصل بالحرفيين المشهورين بحرفة صنع السروج فانكب عليها و شغف باله بها إلى أن أصبح يتقنها اتقانا و كان من بين النجباء الذين فازوا في صنع السروج و هذا بحي العرقوب بمدينة معسكر. و بعد مدة من الزمن تفرغ وحده إلى الحرفة و أصبح يملك محلا ضخما مملوءا بالآلات المستعملة لحرفته، و جزء من هذا المحل مخصص يلتقي فيه الشيوخ و الشعراء يتبادلون الأشعار و بفضل هذا المكان دفع بالمرحوم إلى الميول أكثر لمواصلة الشعر كما تأثر بالجلسات العلمية و السهرات الدينية التي كانت تقام بالمساجد، بحيث و في هذا القرن عرفت معسكر نهضة كبيرة في الشعر الملحون، و في هذا الجو الحافل بالشعر والغناء الشعبي البدوي الأصيل. امتاز المرحوم بالصرامة و شدة البطش حيث كان حسن الوجه، كثف اللحية، شديد السمرة، غير أن عينيه الجذابتين المسترسلتين توضحان شعره دون نزاع، فتسبلان عليه الشجاعة و الشهامة و النخوة و كان الشعراء المتوافدون على معسكر ينزلون بالمسجد و يببالغون المرحوم في تعظيمه، و أن الطلبة أصحابه التمسوا منه مرات عديدة على أن يبرهن لهم عن براعته الشعرية فتصدى في الحين إلى سرد بعض الأبيات من قصائده الشعرية على مسامعهم.

راني امحير، يا ناس ملاق اصبر عقلي أمودر فالبحر بين الموجات
ذا البحر غامق، اجميع من باقي أمشوق، ايحوس على النجات
دخله اغرق

مع العلم أن المرحوم شاعر شاعر و غنائي قبل كل شيء إذ أنه
استخلص من حياته أهم المواضيع لقصائده و اقتترنت مكانته المرموقة عند
الناس كشاعر وشهرته كشجاع فأضحى بمقتضى ذلك كله سيدا من الأسياد
يعيش في نعمة واسعة وسط بطانة من الأصدقاء.

و كان ذا نفس حساسة، و مزاج حاد، ملتهب مشعوف الملاذ يتنعم
بإقامة السهرات يساقي أصدقاء أقداح الراح دون انقطاع، و بين عزف
القصابين كما تميزت شاعريته بقوة شخصيته، و قد امتاز بجودة التصوير
ولا زالت إلى حد الآن قصائده متداولة في الأوساط الشعبية من بينها مطالع
قصيدة من قصائده المشهورة.

ذا الجيل صعبا، ما كان فيهم امحبا عشقوا القصبا، جلبوهم الغنيات
وقد تدفقت من عاطفة المرحوم أكثر من خمسين قصيدة منذ ممارسته
للشعر حتى سنة 1920. وبما أنه كان يشعر بكرامته إلى حد بعيد، كان
سريع الانفعال شديد الإحساس، بكل ما يمس بشرفه الحسيني، كان
يتمتع بكامل الاحترام عند العامة، ويرجع كل ذلك لحرية طبعه و مكانته
العالية، فهذه الدواعي كلها جعلته لا يخضع لضرورة الارتزاق بشعره،
وقد جاء بقصيدة في مثل هذا الباب و التي اقتطف منها هذا البيت.

اشيوخ جاحو، باعو الكلام انقضحوا فالحيوط ضبحوا دايرينهم
فالهوات

ورجحت مدائحه و أهاجيه على غيرها فكان حريصا على أن لا يعرض هذه الكرامة لاستيلاء الرأي العام.

وفي سنة 1927 وقع حادث مؤلم و خطير و هو حادث السد وأمام هذه الحادثة جاء بقصيده و التي أقتطف منها ما يلي:

ماذا تسع إذا طالت الأعمار سبع ايام احساب او زيد سبع اليالى

قصة هذا الحملة كجاتنا اسباب كان ايزورهم الشرق امع الى غرب
بالإضافة إلى ذلك فإن حرفته التي أمتاز بها و التي هي حرفة سراج
جعلته يميل إلى حب الفروسية، أي أنه لما كان يركب جواده .كان يقطع
المسافات في غاية السرعة و الظروف.

و كان المرحوم يغني و يضرب على الدف و كان بارعا، و قد أظهر كل
مهارته وتأثر كثيرا بالخيالة تأثرا عميقا.

و في سنة 1949 فضى المرحوم وقته بين العبادة و تلاوة القرآن الكريم.
استر عقبتي يا يلاه يا غفار أنا و اجميع أهلي و الذي و نا
من أهل التخيار

و بجاه الشرف ذاك منو أصلي اسمي بن يخلف من قبلت الجدار
و في سنة 1953 زار الشاعر البقاع و ذلك لتأدية الركن الخامس من
الفرائض. و في سنة 1957 وافته المنية، تغمد الله الفقيد برحمته
وأسكنه فسيح جنانه. إن لله و إن إليه راجعون.

مقتطف من ديوان المرحوم الشيخ بن يخلف بوطالب

رَانِي أَحْيِرِّ، يَا نَاسَ مَا لَاقَ اصْبِرْ
 دَا الْبَحْرَ غَامِقْ، اجْبِيعْ مَنْ دَخَلَهُ اغْرُقْ
 اللَّهُ يَحْفَظْ، يَا أَحْيِيبَ قَلْبِي رِيضْ
 مَا آسَفَاتْ عَيْنِي، دَا الْجِبِلِّ كِي هَوْلُنِي
 دَا الْجِبِلِّ صَعْبَا، مَا كَانَ فِيهِمْ مُحَبَّبَا
 اشْيُوخْ جَاوْ، بَاعُوا الْكَلَامَ انْفَضُّوْ
 أَرْجَالُ طَاوْ، وَ الْبَحْسَاتُ التَّحْوْ
 ابْنَاتُ شَلَّا، مَا كَانَ فِيهِمْ حَصَلَا
 فِي كُلِّ بَلَدٍ مَنَّا احْتَى لَافْرَنْدَا
 فِي كُلِّ مَضْرَبْ، هَذَا الْقَوْلُ اصْحِيحْ امْجَرَبْ
 انْهَارَ الْأَوَّلْ، اتَّقَوْلَهُ يَا رَاجَلْ
 ثُمَّ اسْأَلَهُ، لَصَابْتَهُ أَبَمَا لَهُ
 يَبْدَا ايجْرَدْ، النَّاقِصُ امْعَ الزَّايِدْ
 زَيْدِي امْحَايِدْ، الْخُوكُ كِي يَسْتَقْعُدْ
 اَيْقَيْدُوهُ بِالْفُومْ، فَالْحَيْنَ اِيخْبِرُهُمْ
 ثُمَّ تَحُومْ، مَا اتْخَافَ وَلَا تَحْشَمْ
 مَسْكِينِ احْصَلْ، ثُمَّ وَلَا يَنْتَقَلْ
 يَنْسَى أَوْلَادَهُ، يَبْقَاوْ كِي الشَّرَّ اقْبَالَهُ
 اتْرِيْدُ تَهْدِرْ، مَا فِيكَ مَا يَنْعِيْرُ
 عَقْلِي امُودِرْ، فَالْبَحْرَ بَيْنَ الْمَوْجَاتْ
 بَاقِي امشَوْقْ، اِحْوَسْ عَلَيَّ النَّجَاةْ
 اعْلَاهُشْ نَائِيضْ، نُورِيكَ هَذَا الْقِصَاةْ
 رَبُّ اِهْدِنِي، اللَّهُ يَغْفِرْ مَا فَاتْ
 عَشَّقُوا الْقِصْبَ جَلْبُوهُمْ الْعَنِيَاتْ
 فَالْخِيُوطُ صَبَّحُوا، دَائِرِيْنُهُمْ فَالْهُوَاتْ
 وَ الْيَوْمَ فَرَحُوا، اتَعَانَدُوا عَلَيَّ الْبَزَارَاتْ
 هُمَا اسَلَلَا، مَنْ شَاوَهُمْ خَدَاعَاتْ
 قَالُوا اسْعِيدَا، ثَمَّةَ الْمَحْنَةَ رَصَاتْ
 مَيْشِشْ كَادَبْ، عَرَوْهُمْ الْمَرْيُولَاتْ
 أَرْوَاخْ تَدْخُلْ، هَذَا مَوْضَعُكَ وَبَيْنَ اتَّبَاتْ
 أَجِيْ اقْبَالَهُ وَ تَرَادَفْ الْقَطْفَاتْ
 يَبْقَى يَتَوَكَّدْ، زَيْدِي الْخُوكُ الْحَافَاتْ
 سَامِحْنَا لِقَايِدْ، امِيْمَتَكَ غَيْرَ اَنْسَاتْ
 كَسْبْ اشْحَالْ اقْطَارَاتْ
 اتَضَلْ تَحْدَمْ فِي اخْدَائِمِ السَّحْرَاتْ
 يَبْقَى امْسَنْسَلْ، فَهَرِيْنَهُ الْبِدَالَاتْ
 تَبْكِي اعْيَالَهُ وَ الْوَكِيْلَ اعْلَا الدَّرَجَاتْ
 لَبْنَاتُ تَشْكُرْ، ذِكْرُوكْ مُوَلَا حُصَلَاتْ

مقطف من ديوان المرحوم الشيخ بن يخلف بوطالب.

نحكى الكم هذا القول اصحيح كما صار
سالم أمعسكر الا أعلى الأخبار
سبع أيام أحساب أوريد سبع الليال

هذي مدة من لي راه قلب شاب
كيف أن زور السيد ينقلع اشغاب
ساعه شوفوا يا الاحباب قدرت رب
كان أيزوره الشرق أمع ألي غرب

للمشيئة تمشى ولا كروسة
لادبيش أيخير تنقلع ذا النغصة
لاطومبيل أجيب كم من أبلاصة
أهي بن سيدي ماذا تسمع إذا طالت
الأعمار

أفراش

ياذا الواد، أتصرف، أقصدتنا بالزاف
غاد تنشف، ياذا الواد، قيلك خاف
سلطانه يعرف، وانت ألا سخاف
ما الصحراء يجلب للبحر تجراف

أفراش

عشارك ياذا الواد ناس أحرار
كما تشته الانفس كل أثمار
وابرد صوقك رآه امثيل للصرصار
أه يا بن سيدي ماذا تسمع إذا طالت الأعمار
في عرض البنيان أحساب عشر أصوار
وادهم باريقوا ياناس نص انهار

أمن تفهم اسمع لي أنعيد لك اقوالى
نحكى ماريت أو ثاني ألي قالوا لي
أهي بن سيدي ماذا تسمع اذا طالت
الأعمار

ماشفناش الفترة ليل و لا أنهار
قلت أن روح أن زورهم الاحباب
محمد الحنفي أمع الاحباب
قصت هذا الحملة جاتنا سباب
أفراش

اليوم القناطر روح خراب
ولا خاطر أيج و لا أظهر تراس
لادبيش أبال أيخبره غاص
في خدمت مولانا ما انفع لسانص

اسمى بن يخلف، أصحيح راني نايف
ابن الشرف، لبدا أمثيل الحالف
شوف الواد أشلف، الشيخ قلبه أنشف
ما يحمل بامصارف، مايدير أمصاحف

وانت صارلك كي الهوبال
كانوا يغرس فيك الثمر ملّ حال
واليوم أبخس شانك هكذا في بال

قصت ذا البراج أيحير فيها عقلى
أمنين أكتب مولانا أهبط للسفلى

أفراش

كى عمد البريقو، الناس الزاقو
لا من يشوف أشقيق ولا يتلاق
أدهمهم أعشى، أمياه أقوي
ما قعدت لاعربى و لا رومى
خرج من ذيك القرية أزال أو غنى
وافطرق واتعمد أعلا الاجبال
لا من يجبر أ رفيق على الاقوال
هربت الدنيا شافوه لهم جاي
أنكشفت حتى السنية أتلف الراي
هود للبرجيه بالعزم جراي

أفراش

لكن حق العرب ياناس هذا هو
مستغانم أمشات روحت للهو
قيس الوحد في الليل هذا الدعو
أجوامع و الحى و القوت حتى الكسو
أعرب وانصار خلق ياسر قوي
يالوكان ألي في خاطره التقو
وبجاه العباد الساكنين الخلو
ما احتاها قصت أبحرف الواو
من غمرتها شل أعباد أبكاو
ليلت ألى و قعت حتى لضواو أطفاو
هذوا راح للزاهر مجموع واك أفناو
وين البزرات ألى أقبيل أعاو
بيكي غمرتها غير أبصار أعياو
وبجاه أهل التصريف عقب أوشاو

أفراش

أعلنا راح لاوكس والخير أقو
هو ينغر أو مغيث ألى بار
وبجاه عبد القادر الجيلالي
وبجاه العشر و النبي المرسلى

أفراش

أنا و جميع أهلي والدي ونا من أهل
التخيار
اسمى بن يخلف من قبلت الجدار
بالتاهر بن طالب فرعنا حيدار
السبع زيد العشرين لا تقخار
واذن سمعت لسن عاود الأخبار
أستر عقبتي يايلاه ياغفار
وبجاه الشرف ذاك من أصلى
إسمى بن يخلف ربحى أو هو فالى
عام ألف تسعمائة انضمت أقوالى
إذا ناقص هذا القول تسمح لى

